سقراط الجريح

قصة للكاتب الالماني

بيرتولد بريخت

لم يكن سقراط ذاك ابن القابلة الذي كان في منطقه وجدله قويا يقارع ويصول مرحا بسيطا يدخل البهجة الى نفوس اصدقائه وتلاميذه، ويجابه الهجوم بروح شفافة لطيفة تخفف من حدة هجوم معارضيه ، ويعاملهم معاملته لتلاميذه أو ابنائه لا معاملة معلم كغيره من الفلاسفة ، لم يكن سقراط من المع اليونان معرفة وحسب بل كان أيضا من اشجعهم. ان سمعة الشجاعة عنه تجعلنا نقر هذا الحكم عندما نعلم عن رأي افلاطون فيه كيف انه تجرع كأس السم دونما تباطؤ أو وجل ، هذه الكأس التي قدمتها له السلطة في النهاية « مكافأة له لخدمته الرائعة لمواطنيه » تحت ادعاء ـ افساد تفكير الشباب .

كان يرى بعض معجبيه وتلاميذه ان عليه أن يبدي شجاعته هذه ايضا في ساحة المعركة لتكتمل من كافة جوانبها ، وحقا اشترك في المعركة عند دليون مع فرقة المشاة ذات الاسلحة الخفيفة . فلم يستطع التسلح بالسلاح الثقيل الغالي اذ ـ لا مكانته الاجتماعية ، فقد كانت مهنته صانع اخذية ـ ولا دخله المادي ، فقد كان فيلسوفا ـ يمكنانه من ذلك . ورغم هذا وذاك فقد كان بلاؤه في المعركة بلاء من نوع فريد .

سقراط ذاك الذي اعد نفسه صبيحة يوم المعركة احسن اعداد لهذه الصفقة الدموية ... اذ راح يلوك البصل كما شاع بين الجنود ايام الحرب ان البصل يجلب الجراة ويثير الهمة فها هو ذا الفيلسوف الجدلي المقارع والمشكك المرتاب في كثير من نواحي الحياة يستسلم لهذه التقاليد والخرافات وبشكل بسيط لا يحوجه جدل ومنطق . فقد كان يكره التعقيد ويقف الى جانب التجارب العملية الواضحة ، ولذا فهو لم يعتقد بالآلهة ولكنه اعتقد بصحة ما يشاع عن الجراة التي تعقب اكل البصل . ولكنه وللاسف لم يشعر بتاثير البصل المرجو . وعلى كل حال لم يشعر بالتاثير العاجل . انضم سقراط الى فرقة المحاربين المشاة ، في الجناح المعول عليه والذي كان من المقرر ان يعبر الحقل الشائك زحفا سمي بزحف البط » .

من امامه وخلفه كان شبان من اثينا وضواحيها وها هم قد لمحوا له ان الدروع المصنوعة في اثينا صغيرة ولا تناسب جسمه الضخم . اما هو فقد خطرت بباله الفكرة نفسها ولكن هان عليه الامر عندما مر به رجال ضخام الجسم عراض المناكب لم تفط هذه الدروع الضيقة سوى نصف اجسامهم . ان تبادل الحديث بين رجل امام سقراط وآخر وراءه عن ارباح مصانع حدادة السلاح الكبيرة وعن هذه الدروع الصغيرة انقطع فجاة عندما دوى الامر العسكري بالاستعداد والاستلقاء على الارض ، ولما ارتمى الرجال على الارض الشائكة انتهر القائد سقراط الذي حاول أن يقعد على درعه . وامتعض سقراط لهذا الركود الذي يخيم على فرقته بينما بدا العدو وقد استبسل بالقرب منهم ، ولكن هذا الصباح الضبابي العكر حال دون كل خاطرة أو تنبؤ عن مصير المعركة . وكان واضحا من صليل السلاح ووقع اقدام وحركة متواصلة بان العدو قد تمركز في الخط الامامي من الجبهة . وتذكر سقراط دون رغبة منه الحديث الذي دار بينه وبين شاب ارستقراطي التقى به قبل بدء المعركة وكان ضابطا من فرقة الفرسان . انها خطة عامة مرسومة ، قال الضابط الشاب « المشاة يقفون بكل بساطة يواجهون العدو ويتلقون ضربته ، بينما فرقة الفرسان تتظاهر بعملية انسحاب فتدور وتبرز للعدو من الخلف » .

يجب ان يكون مكان الانسحاب في الجهه اليمنى ، هناك في قلب الضباب . والآن ايقن سقراط أن الفرسان يتمركزون هناك ، فاعجبته هذه الخطة ، او حكم على الاقل بانها ليست رديئة ، فالخطط توضع عادة حسب قوة العدو وخاصة عندما يكون العدو أقوى عدة وعددا .

حقا ان الامر يتطلب محاربة العدو وكفى ، هذا يعني توجيه الضربات للعدو مهما كلف الامر وعندها لا حاجة للتقيد بخطة ، بل ضرب العدو اني سنحت الفرصة ، او وجدت ثغرة في صفوفه .

الآن ومع أطلالة الصباح غدت الخطة تلك بالنسبة لتفكير سقراط رديئة بكليتها ، وماذا يعني هذا !؟ أتشاة يتلقون لطمة العدو !! وعلى العموم نحن سعداء اذا نجونا من ضربة العدو أو استطعنا أن نحيد عنها ، والآن ألفن كل ألفن ان نتلقى ألضربة ، يا لها من خطة رديئة جدا ومما يزيد الطين بلة أن يكون قائد ألمعركة من فرقة ألفرسان .

آه .. ولم يكن في السوق ما يكفي لكل الجنود من البصل ، ولا شك انه امر غير طبيعي ان نقعي هنا في هذا الحقل الشائك نفترش الارض وننوء بحمل ما لا يقل عن عشرة ارطال من الحديد وحربة في اليد بدلا من ان نبقى مضطجعين في الفراش في هذا الصباح الباكر . صدق الرأي القائل : خير لنا ان ندافع عن المدينة حالما تهاجم ، فهناك التهيؤ والاستعداد انسب واجدى ، ولكن تم تهاجم المدينة لان كل ما في الامر ان اصحاب السفن واقطاعيي كروم النبيذ وتجار الرقيق في آسيا الصغرى اعترضوا طريق اصحاب السفن الفرس وتجار الرقيق واصحاب كروم النبيذ .. يا له من تعليل جميل !

بينما كان المشاة يجلسون محدقين في قلب الضباب ، واذا بهرج مختلط وصراخ يصحبه صليل سلاح وصدى ضربات متواصلة يقترب نحوهم من اليسار ومن الامام والضجيج يتقدم بسرعة خاطفة ... لقد بدأ الهجوم . فنهضوا بعيون مشدوهة تحاول اختراق الضباب ، وعلى بعد عشر خطوات الى الجانب سقط رجل على ركبتيه وهو يهتف باسم الآلهة .

لقد جاء هتافه باسم الآلهة متاخرا وبعد ان فات الاوان .. هكذا بدا الامر لسقراط الملحد وانطلق صوت آخر اختلط بهتاف من اليمين كصدى يطلب النجدة ، فصرخة النجدة هذه تداخلت مع صرخة الموت . ومن طرف الضباب رأى سقراط شظية حديد تنطلق نحوه ... انها رمية سهم . ثم برزوا لهم من المكمن على غير وضوح في شبه العتمة ، هناك الى الامام ... انه حشد وجمهرة بشرية ... انه العدو .

اما سقراط ، هذا الذي تملكته فكرة الانتظار الطويل ، فقد استدار بأسى وراح يجري سريعا محاولا الهرب . ولكن درع الصدر اعاقه ، اما سلسلة الرجلين فكان التخلص منها اصعب بكثير من هذا الدرع ، اذ ليس بوسعه ان يرميها . وببراءة طفولية ولى الفيلسوف هاربا يقفز فوق بقايا الهشيم والاشواك ، وكان كل ما يسعفه هو سرعة قفزاته وكبرها آملا أن يتلقى هؤلاء الشبان الشجعان من خلفه الضربة ولو لوقت قصير . وفجأة اعتراه الم شديد في قدمه اليسرى ، واشتد الالم حتى ظن ان ليس بمقدوره احتمال ذلك مطلقا ، وهوى ارضا يتأوه ويتألم لكنه عاد فنهض واطلق صرخة الم مدوية ، وبعينين مذعورتين تلفت حواليه وعرف كل شيء . لقد وقع في حقل من الحسك الشائك ، كانت الاشواك حادة وطويلة ، ولا بد ان تكون شوكة قد انغرزت في بطن رجله فراح يبحث بحذر عله يجد موضعا خاليا من الاشواك يتسع لجلوسه فقط ، وها هو الآن يعرج ملقيا ثقله على القدم الاخرى السليمة . وبعد بضع خطوات على شكل دائرة وقبل ان يلقي بجسمه الى الارض للمرة الثانية فكر بان ينتزع الشوكة حالا . كان يصغي لدوي المعركة وضجيجها بتوتر وقلق ، ولما زحزح جسمه الى الجانبين لاحظ انه على بعد مئة متر تقريبا من مكان اشتباك الفريقين ، وعلى كل حال بدا له انه من الافضل ان يقترب منهم ولكن ببطء وبشكل خفي .

لم يستطيع أن يخلع الصندل من قدمه الجريحة ، اذ اخترقت الشوكة النعل وانغرزت عميقة في اللحم . كيف ينقل الجنود المدافعون عن ارض الوطن نعالا رقيقة كهذه ؟ فمن كل ثقب في الصندل

كان ينبعث ألما شديد . ومنهكا هوى بمنكبيه العريضين ، وراح يفكر ما العمل ؟! وعندما وقعت عيناه المتعبتان على السيف الذي بجانبه لمعت فجأة فكرة في زوايا عقله فابتهج لها وكأنه يحييها بحرارة أكثر من اي فكرة تخطر له في حربه الجدلية ... الفكرة هي استعمال هذا السيف كحربة . والتقطه عندما سمع وقع خطوات خافتة قادمة نحوه : فئة صغيرة من المشاة اخترقت الحاجز . الحمد للآلهة ، فقد كانوا من جيشه ، وليسوا من العدو ، وقفوا لبضع ثوان عندما رأوه « هذا هو صانع الاحذية » سمعهم يقولون وابتعدوا عنه . ولكن كان يقترب من يسارهم هرج وضجيج ، وتسمع الاوامر تتجاوب أصداؤها بلغة غريبة.. انهم الفرس .

حاول سقراط ان ينتصب على قدميه والاصح على القدم اليمنى، واتكأ على السيف الذي لم يكن مناسبا لقصره ، فلمح الى اليسار في بصيص الضوء لفيفا من المشاة . وبينما هو يسمع آلانين والتأوه يختلط بصدى ضربات الحديد على الحديد او على الجلود راح يعكز الى الخلف على ساق واحدة ، وتملكته الحيرة ، فاضطر لان يقف على القدم المجروحة وهوه يتألم ويتأوه ، فاقترب منه هذا الحشد فتبين له انهم لا يزيدون عن العشرين أو الثلاثين رجلا . كان الفيلسوف يقعي على مؤخرته بين عليقتين شائكتين يرقب فلول العدو تقترب منه وهو لا حول له ولا طول ، فقد كانت تستحيل عليه الحركة . كل شيء يمكن ان يكون اهون من هذا الالم المزعج في بطن رجله ، لم يدر عندها ماذا سيفعل ! وراح يصرخ باعلى صوته ، واذا وصفنا هذا على وجه الدقة ، لقد سمع هو نفسه صوته يعلو او سمع صوتا ينطلق من صدره ويتجاوب كأنه في ماسورة حديد . « هيا الى هنا انتم يا جنود الفئة الثالثة ... اصفعوهم ضربة حامية .. ايها الشباب هيا » ورأى نفسه في الوقت ذاته يمسك بالسيف الذي استعمله كحربة ويلوح به بشكل دوائر فوق رأسه مدافعا عن نفسه حيث برز له جندي فارسي ، وهو يقف الآن امامه مدججا برمحه ، ورؤي الجندي هذا حامل الرمح وهو يهوي على الارض وقد لفه رمحه معه ايضا . وسمع سقراط نفسه مرة أخرى يزعق : لا تتراجعوا ولو لطرح قدم واحدة بعد الآن .. ايها الشباب .. الآن اوقفناهم حيث نريد .. هؤلاء اولاد الكلاب ! انت يا كرابولوس الى الامام ... الى الامام بالفئة السادسة ! يا نولوس الى اليمين ! احذروا ، احذروا ساقطعه مزقا مزقا كل من ينسحب او يتراجع ! »

ولما رأى الى جانبه رجلين من قومه يحملقان بارتباك ودهشة في وجهه قال لهما بصوت خافت :

« هيا ، اصرخوا ... ازعقوا حتى قبة السماء » سقط قناع وجه احدهما فزعا وبدأ الاخر يصرخ ، يصرخ بشيء ما ووقف الجندي الفارسي مذهولا وجلا امامهم ثم تردد وولى هاربا الى المكمن . ومن قلب بصيص النور هناك في الوسط كانوا يولون هاربين بالعشرات ، يتعثرون او يسقطون وقد افزعهم هذا الصراخ المدوي وخافوا فعلا ان يهاجموا من الخلف .

« ماذا هنا » ؟ سأل احد جماعة سقراط الذي كان لا زال ملقي على الارض .

« لا شيء » . قال سقراط « لا تقفوا هنا امامي ولا تبحلقوا في وجهي . من الافضل ان تروحوا وتجيئوا ، تراكضوا واعطوا الاوامر واعملوا الهرج والضجيج والنخوة حتى لا يشعر العدو هناك بقلة عددنا » .

« من الافضل ان ننسحب الى الخلف » قال الرجل مترددا . فثار في وجهه سقراط « حتى ولا خطوة واحدة ، هل أنتم أرانب ؟ » ولما كان الجندي أيضا بحاجة الى حظ يسعفه فالصراخ والثقة بالنفس لا يكفيان للحرب وخاصة عندما يدب الفزع في قلب الجندي . وسمع الآن من بعيد دبيب خيل وصرخات وحشية ، لقد كانت هذه باللغة اليونانية . كل واحد يعرف كيف كانت هزيمة الفرس مضاعفة مذهلة في ذلك اليوم. فقد انهت تلك الهزيمة السوداء الحرب فربحها اليونان .

ولما مر قائد الفرسان ـ الكيبياديس ـ بالحقل الشائك رأى مجموعة من المشاة يحملون رجلا سمينا ضخم الجسم على الاكتاف . فشد الكيبياديس لجام حصانه ووقف يمعن النظر في هذا الرجل فعرف فيه سقراط الفيلسوف ، ثم أخبره الجنود ان لهذا الرجل الفضل في الثبات امام العدو ومقاومته حتى النصر وحملوه محفوفا بهالة الظفر الى العربة حيث نقلوه الى العاصمة محاطا بثلة من الجنود الذين بللهم العرق من عناء هذا الحمل الثقيل . ثم دخلوا به يهرجون ويهتفون الى داخل البيت الصغير المتواضع وسط الهتاف والاهازيج . كانت امرأته اكسانتيبة تعد مرق الفاصوليا وبين اللحظة والاخرى كانت تحدق فيه بنظرات فاحصة وبينما كانت تركع على ركبتيها امام موقد النار تنفخ فيه ، كان سقراط لا يزال جالسا على الكرسي الذي اجلسه عليه زملاؤه !

ـ « وماذا حل بك ؟ » سألته مفتاظة .

وتمتم سقراط « لا شيء » .

ـ وما اصل هذه الثرثرة عن بطولتك كما سمعت » ؟

ـ « ليست الا غلواً وتهويلا وهذرا » ان رائحة المرق طيبة جدا ..

ـ كيف يمكن ان تكون الرائحة طيبة وانا لم اشعل النار بعد !! لقد جننت .. ها . ها ! وغدا ساجني سخرية الناس عندما اذهب لاحضار الخبز .

ـ لم اجن أبدا ... بل .. وقاطعته هي :

ـ بل كنت ثملا !

ـ « أبدا . لقد سعيت لان يصمدوا قبل الهزيمة والتراجع » .

ـ « انك نفسك لا تستطيع ان تصمد على قدميك » قالت وقد انتصبت عندما فرغت من أشعال النار . وطلبت منه الملح قائلة :

ـ « ناولني وعاء الملح من على الطاولة » .

ـ « لا ادري . ربما كان الافضل ان لا آكل شيئا .. لانني قد اتعبت معدتي ... »

ـ « ألم آقل لك انك سكران .. هيا وجرب ان تنهض وتسير في الغرفة وسنرى ... »

وآلمته قساوتها هذه ، ولكنه على أي حال وبأي ثمن لن ينهض ، فستتأكد من انه لا يستطيع الوقوف . لقد كانت امرأته ذكية وتستطيع معرفة ما تريد ان تعرفه عنه .. فهو لا يريد ان يعزو سبب ذلك الى المعركة ! وبينما هي لا زالت واقفة امام الموقد ممسكة بيدها وعاء الطبخ اخبرته بما يخالجها وما يدور في رأسها .

ـ « انا متأكدة بان اصدقاءك اوكلوا لك العمل في اعداد الزاد في المؤخرة او في دفع العربات والعمل المنهك » .

وفي الخارج ، في الزقاق ، كان يرى من فتحة النافذة حشد الذين يرفعون المصابيح البيضاء احتفالا بالنصر . ان أصدقاءه لم يكلوا له مثل هذا وما كان هو ليقبل به وتابعت تقول :

ـ او انهم رأوا من الطبيعي ان يزحف صانع الاحذية مع الزاحفين ولا يهمهم من امره شيء . انه صانع احذية ويجب ان يبقى ، هكذا هم يقولون ! والا كيف يمكن ان نحضر الى مأواه الحقير ونثرثر الساعات الطوال حتى يرى هذا العالم كله ! أليس هو صانع الاحذية ... ورغم ذلك فالرجال الكبار يجلسون اليه ويتحدثون معه عن الفيلرسوفي !

ـ تعنين الفيلرفوبي .. قال سقراط ساخرا .

فرمته بنظرة حانقة وقالت : لا تعلمني .. انا اعرف انني لست مثقفة ولو لم اكن انا لما وجدت من يوفر لك وعاء ماء تغسل به قدميك.

وانكمش على نفسه آملا ان لا تلح عليه اليوم بغسل القدمين ، شكرا للآلهة لقد تابعت حديثها :

ـ اذن لم تدر رأسك الخمرة ، ولم تخدمهم في مؤخرة المعركة ، فلا بد ان تكون حاربت في صفوف المحاربين .. ها .. ها ، ماذا ! بقع دم على يدك .. ماذا ؟ ولكنني عندما ادوس على عنكبوت تصرخ بي ، لا بد انك حاربت معهم ، فحملوك على الاكتاف ، سوف اتأكد من ذلك ، اطمئنك ، سوف احصل بطريقتي الخاصة على الخبر اليقين !

كان المرق الآن جاهزا ورائحته طيبة مغرية ، ورفعت هي الآن

الوعاء ماسكة المقبض بطرف ثوبها ، لكنه راجع نفسه فخطرت ببالـه ضرورة وقوفه وتقدمه الى طاولة المائدة . لم تنته المشكلة بسلام ، لا زال يحسب لما سيحل به . ولم يسلم من كل شيء بمجرد ان كسب المعركة ضد الفرس .

الان وفي نشوة الظفر الاولى لم يفكر احد بذاك الذي أبلى البلاء الحسن ، فكل واحد كان مشغولا بالتغني بامجاده وبطولاته ، لكن غـدا او بعد غد ، سيرى كل محارب ان بطولة زميل المعركة ذاك هي فـي المكان الاول . كثيرون هم اولئك الذين لا زالوا يرممون مـن حـال غيرهم ، فهم يعرفون انهم يفضحون أناسا آخريـن عندمـا يشيرون بالبنان الى البطولة الحقيقية فبالنسبة لانكيبياديس لم يكن كل شيء هكذا بلونه الاخضر ، فالهتاف يعلو : انت ربحت المعركة ولكن صانـع الاحذية خاض غمارها ..

الشوكة تؤلم سقراط الآن اكثر فاكثر ، ولو لم يخلع نعله هـذه اللحظة لغدا من المؤكد أن تتسمم . « لا تتلظمي هكذا » آنتهر سقراط زوجته بشرود فتجمدت الملعقة في فمها :

ـ ماذا افعل ؟

ـ لا شيء ، اجاب هو فزعا ، « كنت شاردا مـع افكاري .. » وقفت الآن هنيهة امام الموقد أشعلت النار وخرجت .. تنفس الصعداء كمن افرج عنه غم ، وبسرعة نهض عن الكرسي وهو يعرج بقفزات حذرة متطلعا حواليه . ولما دخلت ثانية لتأخذ وشاحها نظرت اليـه بقلق : كيف يرقد بلا حراك على السرير الذي ما هو الا ارجوحة مشدودة الى عمودين ومكسوة بالجلد !

لا بد ان شيئا ما اعتراه ، حتى انها أرادت أن تسأله ، لكنها صممت على خير من ذلك وخرجت تتمتم قاصدة الجارة التي ستصحبها الـى مشاهدة احتفالات النصر .

غط سقراط في نوم قلق ، واستيقظ مثقلا بالهموم . لقد خلع النعل لكنه لم يستطع انتزاع الشوكة من لحمه ، فتورمت قدمـه . أما في هذا الصباح فلم تكن امرأته كعادتها قاسية جدا . لقد سمعت في المساء المنصرم المدينة كلها وهي تتحدث عن زوجها وتلهج باسمه . لا بد ان شيئا ما قد حصل فأثار الاعجاب به . أما انه قد وقف فـي رجه فرقة من مشاة الفرس بأكملها فهذه الشائعات لم تجد طريقـا الى رأسها .. هو لا ... لا يمكن ولا يستطيع ذلك ! أسئلة كثيـرة تدور في رأسها .. ماذا حصل ؟ فلم تتأكد من كل ذلك ... وأحضرت له حليب الماعز الى حيث يرقد ، لم يكـن يرغب في الخروج ... فسألته : « ألا تود الخروج ؟ » . فتمتم مجيبا : « لا أريـد » . قالت لنفسها : « على هذا النحو لا يجيب رجل زوجته » . ولكنهـا تصورت انه لا يرغب أن يراه الناس ، أنه يتجنب أنظارهم ، فسكتت . وقبل الظهيرة حضر الزائرون .. عدد من الشبان وأولاد العـائلات النبيلة والذين يرون فيه معلما قديراً لهم ، وكان بعضهم يكتب مـا يتحدث به اليهم كأن حديثه شيء مهم جدا . أما اليوم فهم يروون له عن بطولته التي تتحدث عنها كل اثينا . ان هذا اليوم حدث تاريخي مشهود للفلسفة . ويؤكد صدق الفلسفة ، اذ برهن سقراط بالفعـل بأن الفكرة العظيمة مقترنة بالعمل العظيم .

كان سقراط يستمع اليهم دون لهجتـه الساخرة المعهودة ، وبينما هم يتحدثون كان يخيل اليه انه يسمع أصواتا وهرجا آتيـة من البعيد ، كما يسمع الرعد القادم من الابعاد النائية ، هرج مدينة بأكملها يأتي من بعيد .. ويقترب ثم يقترب .. وبعد ثـوان أصابت الجميع عدوى الهرج ، عابري الطريق ، التجار ورجال السياسة في السوق ، وذوي الحرف في محالهم ، الكل في هرج وضجيج .

ـ « كل ما تقولونه كلام فارغ » . قال الفيلسوف فجأة . « أنا لم أفعل شيئا » . ونظروا اليه بابتسامة ، فقال أحدهم : « تماما .. هكذا قلنا ، اذ عرفنا انك ستقف هذا الموقف . « ما هـذا الصراخ والتهليل ؟ » سألنا أوديسو بـولوس أمام الاكاديمية .

عشر سنوات ، كافح خلالها سقراط بالمعرفة والعقل ولم يلتفت اليه انسان ما . والآن بمجرد أن ربح معركة واحدة ، ها هي أثينـا كلها تتحدث عنه ، أليس من المخجل هذا ؟

فتنهد سقراط وقال : « أنا لم أكسب معركة ، بل كل ما فعلت انني دافعت عن نفسي لانني هوجمت . لا تهمني المعركة بحال مـن الاحوال لانني لست من تجار الاسلحة ولا من اقطاعيي كروم النبيذ هنا . فلماذا أخوض معركة لا ناقة لي بها ولا جمل ؟ كنت بيـن رجال من ضواحي المدينة والذين لا تهمهم المعركة أيضا ، ولم أفعـل أكثر مما فعلوا ، على الاكثر بضع لحظات قبلهم » .

وبدا الشبان كأنهم هزموا جدليا : « حقا . كذلك قلنا نحـن أيضا .. لم يفعل شيئا سوى انه دافع عن نفسه ، وهذه حاله دائما في كسب المعارك . اسمح لنا الآن أن نعود الى الاكاديمية ، فلقـد قطعنا نقاشنا هناك لنأتي ونحييك » .

وخرجوا وهم غارقون في النقاش .

لا زال سقراط يستلقي في فراشه متكئا على كوعه ، ينظر الى السقف الاسود الصدىء . لقد كان على حق في آرائه المظلمة هذه ، وكانت أمرأته تنظره بنظرات فاحصة بين الحين والآخر من الزاويـة التي تقبع فيها ترتق ثوبا بحركات يدها الاوتوماتيكية . وفجأة قالت بصوت خفيض : « أذن ، ما وراء هذا كله ؟ » . كانت تلك المـرأة الساذجة ذات صدر كأنه لوح خشب ، عيناها فيهما حزن وأسـى ، وكان يعتمد عليها كثيرا ، فهي عونه ومسعفه عندما يتخلى عنه حتى تلاميذه اذا ما قالوا : « ومن ذا يكون سقراط ؟ أليس هو صـانع الاحذية الذي يكفر بالآلهة ؟ » . لا شك انه ليس من تكافؤ بينهما ، لكنها لا تتشكى ولا تتذمر ، وكل مساء عندما يعود من دروسه مـع تلاميذه الاغنياء وقد نهشه الجوع ، يجد كسرة خبز وقطعة شحم على الرف . ولما فكر الان انه سيقول لها كل شيء ، عاد فأدرك انـه أن فعل هذا فسيضطر لقول أشياء كثيرة لا تطابق الحقيقة ، وعندما يأتي اليه أناس ويتحدثون اليه عن بطولاته بحضورها ، وماذا بعدئذ ؟! انه لا يستطيع ذلك ، واذا عرفت هي بنفسها الحقيقة فسوف يترك كل شيء على حاله ، لانه يحترمها . « ان رائحة الحساء تملأ الحجرة منذ البارحة » .

لم تجب سوى بنظرة قلقة ، فهو يعرف جيدا انهما لا يستطيعان أن يرميا ببقايا طعام ، يعرف ذلك ، لكنه يبحث عن شيء ما ليغيـر موضوع الحديث . أما هي فقد أيقنت ان شيئا ما يدور في نفسه ، لم لم يقف بعد على قدميه ؟ من عادته طبعا أن ينهض متأخرا مـن نومه لانه يأوي متأخرا الى الفراش كل مساء ، أما البارحة فقد نام مبكرا ، واليوم ها هي المدينة كلها في حركة دائبة وفي غبطة وتهليل ومرح . ففي الزقاق كانت المتاجر مغلقة ، وفرقة من الفرسان عادت هذا الصباح الباكر ، وقد استيقظ الناس على وقع حوافر الخيـل في الازقة ، ومن عادته أن يخرج مبكرا في مثل هذا اليوم ويديـر نقاشا حامي الوطيس ، لكنه لم ينهض من الفراش ؟ ظلال عنـد الباب ، وشبه عتمة اخترقها أربعة أعضاء من مجلس المدينة وقفوا في منتصف الحجرة ، وقال أحدهم بلهجة احترام : انه فوض باحضـار سقراط الى البهو . لقد طلب ذلك قائد الجيش الكيبياديس نفسه ، بأن يمنح سقراط التقدير اللائق به لبلائه الرائع في المعركة . ومن حول البيت كان يعلو هرج المتجمهرين .

وأحس سقراط بالعرق يتصبب على جسده ، أدرك الان انه من الواجب أن يقف على قدميه حتى لو رفض الذهاب معهم ، فمن الادب أن يقف ويقول لهم شيئا ما ويصحبهم الى الباب ، وهـو يعرف أيضا انه لا يستطيع ذلك ، على الاكثر خطوة أو خطوتيـن ، وسوف يرى الجميع قدمه ، ويعرفون كل شيء ، وعندها سيبـدأ الهزء والسخرية . وبدلا من الوقوف أقعى على مؤخرته وقـال : « لست بحاجة الى تعظيم . أخبروا البهو بأنني على موعد مـع أصدقائي في الساعة الحادية عشرة لنتحدث في موضوع فلسفـي يهمنا ، ويؤسفنـي انني لن أحضر ، ولا أرغب في الاحتفـالات

والمهرجانات . وأنا الآن متعب جدا » . قال هذا وقد أدرك انه حشر الفلسفة في الموضوع ، وفهم أعضاء المجلس ما قاله لهم فانصرفوا .

« سوف يعلمونك كيف تحترم الموظفين الكبار » قالت الزوجة مغتاظة ودخلت الى المطبخ .

استدار سقراط بجسمه الثقيل وجلس على حافة السرير بحذر يختلس نظرات باتجاه الباب . وحاول الوقوف على القدم الجريحة ، ولما بدا له ذلك عسيرا عاد فجلس في السرير وهو يتصبب عرقا . مضت نصف ساعة من الوقت . تناول كتابا وراح يقرأ فيه . وهو الآن لا يشعر بألم الا اذا حرك قدمه.وأخيرا جاء صديقه أنتيسيتنيس. لم يخلع معطفه بل بقي واقفا عند العتبة يسعل ويحك ذقنه ، ثم يرمي سقراط بنظرات فاحصة : « لا زلت مضطجعا ؟ ظننت اني لن ألقى غير اكسانتيبه . فلقد نهضت اليوم مبكرا لاستفسر عن حالك ، أصابني البرد فلم أستطع أن أشترك معكم البارحة » .

« هيا اجلس » قال سقراط . وأحضر انتيسيتنيس كرسيا من الزاوية وجلس الى صديقه :

« سأعود اليوم الى الدرس ، فلا موجب للانقطاع طويلا ، وقد سألت نفسي طبعا اذا كان التلاميذ سيحضرون واليوم سيكون الطعام والشراب ، لكنني التقيت في طريقي الى هنا بالشاب فيستون ، ولما قلت له بأنني سأعطي اليوم درس الجبر أبدى اعجابه ، وقلت له ان بامكانه أن يحضر بلباسه العسكري وبخوذته أيضا. أما بروتاجوراس والآخرون فسوف يفتاظون عندما يقال أن انتيستينيس ألقى دروس الجبر في المساء الذي أعقب المعركة » .

راح سقراط يؤرجح سريره المعلق بأن ثبت يده على الجدار ودفع السرير . ونظر الى صديقه بعينين فاحصتين وقال : هل التقيت بأحد آخر ؟

ـ بأناس كثيرين .

كان سقراط يبدو ممكر المزاج . هل يقدم لانتيسينيس شيئا من الخمر النقي ؟ انه هو نفسه لم يأخذ اجرا على دروسه ، ولم يكن مزاحما في يوم ما لانتيسينيس .

ونظر أنيستينيس الى صديقه نظرات فضولية وقال :

ـ أن جيورجياس يروح ويجيء محدثا الناس انك هربت في المعركة ـ خطأ ـ في الاتجاه الآخر ، ولكن بعض الشباب الطيبين يريدون أن يمسكوا به ويشبعونه ضربا .

نظر سقراط في وجه صاحبه بدهشة وحنق وقال : كلام فارغ .

واتضح له الان ما يريده له خصومه : لقد فكر بالامر ليلة البارحة . فبوسعه أن يحول المشكلة كلها الى مجرد تجربة ويعلن الى أي حد تصل بساطة الايمان المطلق . عشرون عاما قضيتها في الشوارع أعلم السلم وكره الحروب ، ولكن شائعة واحدة كانت كافية لان يرى في حتى تلاميذي صورة المحارب القديم ، ولذا كان من الافضل أن لا تنتصر في المعركة . لا شك أن هذا الوقت هو أسوأ زمن للسلم ، فعقب الهزيمة كان حتى كبار القوم ولمدة طويلة سلميين ! أما بعد النصر نرى حتى عامة الناس معجبين بالحروب على الاقل ولفترة ما حتى يعودوا فيذكروا انه بالنسبة لهم يستوي النصر بالهزيمة . لا ... أبدا ، لا يستطيع الآن أن يعمر بالسلم دولة ..

وكان يسمع من الزقاق وقع حوافر الخيل يقترب ويقترب حتى وقف الفرسان أمام البيت ودخل الكيبياديس نفسه يختال في خطوه .

ـ صباح الخير يا انتيستينيس . كيف حال الفلسفة ؟ لقد فقدوا صوابهم هناك في البهو يا سقراط لكلماتك ، فأعلنت أنا عن فكاهة أعجبت الجميع ، فبدلا من منحك اكليل الغار « ستمنح » خمسين جلدة بالعصا ، ولكن يجب أن تأتي معي . سوف نذهب معا سيرا على الاقدام .

تنهد سقراط ، وكان على علاقة طيبة ودية مع الكيبياديس الذي جلس معه أكثر من مرة وشربا معا ، وانه لشعور طيب أن يبحث هو نفسه عنه . ثم قال سقراط وهو يؤرجح سريره المعلق :

ـ السرعة تعني الاعصار الذي يهوي بالبناء . هيا اجلس .

ضحك الكيبياديس وتناول كرسيا ، وقبل أن يجلس حنى رأسه بأدب أمام اكسانتيبه التي كانت تقف عند باب المطبخ تمسح يديها المبللتين بطرف ثوبها . ثم قال الكيبياديس :

ـ أنتم يا معشر الفلاسفة قوم عجيبون . ربما يزعجك الآن انك ساعدتنا في كسب المعركة . وانتيستينيس ، ألم يقتنع بعد بحجتك وبالاسباب الداعية الى خوض المعركة ؟

ـ « كنا نتكلم عن الجبر ، قال انتيستينيس ذلك ثم سعل .

تجعد وجه الكيبياديس وقال :

ـ لم أتوقع غير هذا .. برأيي ان ما فعلته كان شجاعة تحمد عليها ، واذا شئتما كان شيئا لا يذكر ، ثم ما هو اكليل الغار ؟ هيا وهيىء نفسك وجمع قواك ، فستقضي الامر بسرعة ، وبعدها نخلو للشراب .

قال هذا وهو يلقي نظراته ممعنا في هذا الجسم الضخم الملقى في السرير . وفكر سقراط ماذا عساه يقول ؟ أبوسعه أن يقول انه اليوم أو البارحة قد انفرزت في قدمه شوكة حادة مثلا عندما ألقى به الجنود من على أكتافهم على الارض ، وهذا يوضح أيضا بأي بساطة يمكن أن يحيط الاذى بامرىء من جراء تعظيم مواطنيه . وجلس معتدلا في السرير ومسح يده اليمنى على ذراعه اليسرى وقال : « المشكلة هي ... قدمي » . ومع هذه الكلمة خفض عينيه الى الارض لانها أول كذبة بهذه المناسبة ، وقد أخفى كل شيء عن اكسانتيبه التي تقف الآن بباب المطبخ . فتعثرت الكلمات على شفتي سقراط ، وفجأة شعر انه لا يرغب في أن يحكي قصته .

توقفت الارجوحة : « اسمع يا الكيبياديس » . قال بصوت فيه حيوية ونشاط « لا يمكن التحدث عن شجاعة ولا بشكل من الاشكال ، فقد هربت منذ البداية ، ومنذ أن قدمت فرقة العدو ، وذلك في الاتجاه السليم نحو الخلف ، وكان ذاك الحقل مملوءا بالاشواك ، فانفرزت شوكة في قدمي ولم أستطع الهرب ، فرحت أضرب كوحش وألوح في الهواء يمنة ويسرة ، وكدت أهوي على زملائي ، وبينما أنا على حالتي تلك بدأت أصرخ لأوهم الفرس أن هنا مجموعة من المحاربين ستنقض عليهم . وهذا طبعا ليس صحيحا ، وهم لا يفهمون اليونانية ! وعلى وجه آخر يبدو انهم كانوا مضطربي الاعصاب يسيطر عليهم القلق والفزع فلم يستطيعوا حتى أن يحتملوا ذلك الضجيج والصراخ الذي أثرته من حولهم ، وتفرقوا للحظة ريثما وصل فرساننا : هذا كل ما فعلت » .

ولبضع ثوان عم سكون في الحجرة ، وبينما الكيبياديس يحدق في وجه سقراط راح انتيستينيس يسعل وقد وضع يده على فمه ، ولم يكن سعاله هذه المرة مصطنعا ، ومن باب المطبخ حيث تقف اكسانتيبه انطلقت ضحكة سخرية ، فقال انتيستينيس : « ولهذا السبب لم تستطع أن تذهب الى البهو وتصعد الدرج عرجا لتتسلم اكليل الغار ... آه لقد فهمت » .

استند الكيبياديس على مقعده وراح يراقب بعينين منكمشتين هذا الفيلسوف المستلقي على سريره . ولم يتطلع لا سقراط ولا انتيستينيس اليه . وانحنى بجسمه ممسكا ركبتيه بيديه واهتز وجهه الشاب : « ولماذا لم تقل بأنك جرحت وليست الشوكة هي العلة ؟ » . فقال سقراط بخشونة : « لان الشوكة منفرزة في لحمي » . قال الكيبياديس : « أوه ! لهذا السبب ، فهمت » . ثم نهض من مقعده بسرعة واقترب من السرير : « يؤسفني انني لا أحمل اكليلا من الغار ، أو تاجي الخاص حتى أتركه لك هنا . ثق انني أعتبرك شجاعا ، اذ لا أعرف أحدا يمكن أن يروي القصة الحقيقية هكذا وفي مثل هذه الظروف كما رويتها أنت » وخرج .

وعندما كانت اكسانتيبه تغسل القدم ، وتنتزع الشوكة من اللحم ، قالت بمزاج متعكر وقرف :

ـ كاد يؤدي هذا الى تسمم في الدم .

قال الفيلسوف : ـ على الاقل ...

المانيا الغربية — ترجمة : عيسى علاونه